التصوف والأمن الروحي

Sufism and spiritual security1

د.خديجة بلخير

جامعة ابن خلدون-تيارت (الجزائر khadidja.belkheir@univ-tiaret.dz

معلومات البحث

تاريخ الاستلام: 2021/10/23
تاريخ القبول:2022/01/30

Printed ISSN: 2352-989X
Online ISSN: 2602-6856

ملخص:

تتناول هذه الدراسة العلمية موضوع التصوف كمنهج تربوي، يسعى إلى تهذيب النفس وبناء إنسان فاضل في المجتمع، فالتصوف بكل أبعادة يحقق كثيرا من الغايات والأهداف من بينها الأمن الروحي الذي يعتبر من أهم مطالب الحياة، حيث يحمل معاني السلامة والاطمئنان النفسي، والإنسان يعيش كثيرا من التقلبات في حياته التي تسبب له القلق والخوف والفزع، بل قد تؤدي أيضا إلى التطرف بكل أشكاله.

ولعل ما يمر به العالم الآن من قلق الوباء كورونا، أصبحت الإنسانية جمعاء في حاجة إلى توفير هذا الأمن الروحي الذي من شأنه أن يواجهه هذا الخطر بكل طمأنينة واستقرار، والتصوف كتجربة ذوقية يؤسس لهذا السلام الروحي الذي هو حق من حقوق الإنسان

الكلمات المفتاحية : تصوف، أمن، إنسان، كورونا، عيش.

ABSTRACT

This scientific study deals the subject of Sufism as an educational curriculum, seeks to discipline and build a human being who is struggling in society, Sufism in all dimensions achieves many goals and objectives, among them is spiritual security, which is considered one of the most important demands of life, it carries the meanings of safety and psychological reassurance, man lives through many fluctuations in his life, which cause anxiety, fear and panic, it can also lead to extremism in all its forms.

Perhaps the word is now concerned about the epidemic corona, which all humanity needs to provide this spiritual security, that risk will be faced with reassurance and stability, and Sufism as a spiritual experience that establishes this spiritual peace that is a human right.

Keywords: Sufism, security, man, corona, living.

1. مقدمة:

يعتبر التصوف علم من علوم الشريعة، وقد أطلق عليه البعض بعلم التزكية باعتباره يهتمّ بالجانب الباطني للإنسان ، ومنهجه مبنيّ على الذوق ومحله القلب الذي يعد المصدر الأول للمعرفة، وقد عرف بإسهاماته الكثيرة في كل المجالات عبر التاريخ، سواء في المحافظة على الهوية الوطنية أو في دعوته للحوار والتعايش مع الآخر، أو في دفاعه عن حقوق الإنسان ممّا يخرجه من تلك التهمات الذي ألصقت حوله في كونه انعزال عن المجتمع، حيث أقر الكثير من سادة الصوفية على الدور الكبير الذي يلعبه التصوف على مستوى الفرد والمجتمع معا.

إن الإنسان بطبيعته الفطرية يميل أو يعود إلى ذلك العالم الأول الذي انبثق منه وجوده، وهو ذلك العالم الغير الحسي أو المادي حيث السلام والأمن الروحي، والإنسان باختلاف اديولوجيته ومعتقده الفكري أو الديني يبحث عن راحة البال والطمأنينة والتعايش مع الذات، ولعل التصوف يلبيّ حاجياته الروحية التي بها تتحقق جميع المطالب، **فإلى أي مدى يساهم التصوف في الأمن الروحي؟ كيف يتحقق الأمن الإنساني في رحاب التصوف؟ ما يمكن أن يقدمه التصوف اليوم أمام جائحة كورونا (كوفيد 19)؟**

يهدف هذا البحث إلى تبيان دور التصوف الإسلامي في مواجهة الأزمات النفسية، من خلال منهج ذوقي يجعل الذات الإنسانية ترتقي من هذا العالم المادي المليء بكثير من الاضطرابات بشتى أنواعها، والمشاكل والخيبات إلى عالم الملكوت حيث الطمأنينة والسكون، فقد كان التصوف ومازال يؤمن للإنسان السلام الروحي، ويحقق له كل قيم السلم مع نفسه أولا، ومع الآخر ثانيا، وقد اتبعنا في بحثنا هذا منهجا تحليليا نقديا، قمنا به بتحليل الكتابات والتجارب الصوفية ومحاولة إسقاطها على ما يمرّ به العالم اليوم، وكذا كيفية التعامل مع الظروف والأزمات من خلال تجارب المتصوفة الأولون.

2. مفهوم التصوف:

اقترن ظهور مصطلح التصوف بتدوين العلوم الشرعية في القرن الثالث الهجري حينما أصبح كل علم مستقل بذاته له خصوصياته، وشرع المحدثون بتدوين علم الحديث والأصوليون بتدوين علم أصول الفقه، حيث اختص المتصوفة بتدوين علم التصوف فبدؤوا يكتبون ويسجلون تجاربهم الذوقية حول المعرفة والمقامات والأحوال والكشف وغيرهم.

وعرف التصوف قبل القرن الثالث الهجري أنه حركة زهد التي كانت واسعة النطاق في البصرة، ثم أصبح بعد ذلك مقاما من المقامات ومقدمة للتصوف الإسلامي وقد مر التصوف بثلاثة مراحل، تبدأ المرحلة الأولى من عهد النبوة أي في القرن الأول الهجري حتى القرن الثالث الهجري، تميزت بتهذيب النفس وبالزهد وكثرة العبادات فأطلق عليه بالتصوف السلوكي، وجاءت المرحلة الثانية بعد القرن الثالث الهجري حتى القرن السابع الهجري، احتك خلالها المتصوفة بالثقافات

الأخرى اليونانية والهندية والفارسية وخصوصا الفلسفة، وطرحت كثير من الأفكار الدخيلة على التراث الإسلامي كفكرة النبوة والإنسان الكامل والاتحاد والحلول، أي كان تصوف فلسفي، وتعد المرحلة الأخيرة التي كانت من القرن التاسع إلى يومنا حيث مزجت بين المرحلتين، وأغلب هذه الممارسات تقوم في الزوايا عبر مختلف العالم الإسلامي.

عرف التصوف بأنه علم التزكية أو علم الأخلاق لأنه يركز على تهذيب النفس وتقويم السلوك ، إذ أن من الصعوبات التي تواجه الباحث في مجاله أن يحدد معنى واحد للتصوف، كونه تجربة ذوقية تختلف من صوفي إلى آخر، فهناك تعريفات متنوعة ومختلفة تعبر عن ميزة التجربة الروحية وانفرادها عن المعارف الأخرى .

وقد ذكر السايح أن سبعمائة من أساتذة الصوفية تحدثوا عن التصوف، فالأول قال نفس الشيء عن الأخير، وكانت العبارات أو الجمل مختلفة، ولكن الفكرة ظلت كما هي: التصوف هو التخلي عن أمر لا لزوم له (**Christian**, , **Bonaud**,., **1991**, **p**. **10**)

ممّا يعني أن جوهر التصوف واحد رغم الاختلاف والتنوع الذي يشهده المتصوفة في تجاربهم، وكلما اتسع المعنى ضاقت العبارة، أي من الصعب أن تتعامل مع اللغة الصوفية المفعمة بالرموز والإيحاءات.

وجميع معاني التصوف كما يذكر الكلاباذي كلها من التخلي عن الدنيا وعزوف النفس عنها، وترك الأوطان ولزوم الأسفار، ومنع النفوس حظوظها وصفاء المعاملات، وصفوة الأسرار، وانشراح الصدور وصفة السباق (**الكلاباذي أبو بكر، 2011، صفحة 16**)

وقال محمد بن علي القصاب: التصوف أخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام، وهو مبنيّ على ثلاث خصال: التمسك بالفقر والافتقار إلى الله، والتحقق بالبذل والايثار، وترك التعرض والاختيار (**القشيري أبو قاسم عبد الكريم؛، 2015، صفحة 423**)

وذكر عبد القادر الجيلاني أن التصوف " ليس أخذ عن القيل والقال، ولكن أخذ عن الجوع وقطع المألوفات والمستحسنات، ولابتداء الفقير بالعلم وإبدائه بالرفق، فإن العلم يوحشه والرفق يؤنسه" (**–الجيلاني، عبد القادر، 2007، صفحة 139**)

وسئل النوري عن التصوف فقال: ليس التصوف رسوما ولا علوما ولكنها أخلاق (**السلمي، عبد الرحمن، 1969، صفحة 167**)

وقال أبو بكر الشبلي: التصوف شرك لأنه صيانة القلب عن رؤية الغير ولا غير (**لهجويري، 1980، صفحة 234**)

فجل هذه التعريفات على اختلافها تنطلق من الذات وكيفية ارتقائها من العالم الحسي المادي، لتنعم بسلام داخلي في عالم علوي خال من الملذات والشهوات .

وقيل أن الصوفي ابن وقته أي أن يعتني بما يعيشه الآن، ولا يهتم لا بالمستقبل ولا بالماضي (**Michon, Jean–Louis, 1990, p. 216**)

ولربما هذا ما جعل بعض الباحثين يعترف أن الصوفية تتألف من أربعة أشياء: النقاء، والإخلاص، إبادة الذات، والإفراط في الوجود (**Kubro, Nazhmiddin, 2002, p. 147**) فهي تعد مبادئ وأساسيات التصوف الإسلامي، ومنها تؤسس المعرفة .

لعب التصوف دورا كبيرا في الحفاظ على الهوية، وعلى حل الكثير من النزعات السياسية عبر التاريخ، ومازال إلى يومنا هذا يشهد هذه الحركة التنويرية رغم نمطه الروحي، فقد دعا إلى قبول الآخر والتحاور والتسامح والتعايش معه من أجل تحقيق العيش والأمن الاجتماعي، ولم يعد يمثل الاعتزال والانفراد بذاته، بل في كل مرة يقحم نفسه في مواضيع راهنيه إقليمية كانت أو عالمية، ممّا يدل على أهميته كعلم في الفكر الإسلامي .

3. الأمن الروحي والتجربة الذوقية :

ورد في لسان العرب مصطلح الأمن وهو " من الأمان وقد آمنت فأنا آمن ، وآمنت غيري من الأمن والأمان، والأمن ضد الخوف (**ابن نظور، أبي الفضل جمال الدين، 1993، صفحة 46**) مما يعني أن الشعور بالخوف هو الذي يهدد الأمن ، أو الشعور بالخطر فيكون مصدر تهديد الأمن الروحي هو شعور داخلي ينتاب الإنسان .

والأمن الروحي هو مسؤولية الأديان ، لأن الدين له إمكانياته التشريعية في تحقيقه، سواء عن طريق الممارسات الدينية كالصلاة والصوم والذكر، أو من خلال التعايش مع الذات لتحقيق السلام والطمأنينة بالابتعاد عن التوتر والقلق، وقد تكون أيضا مهمة العالم النفساني في تعامله مع المرضى الذين يعانون من أمراض نفسية، فغالبا ما يكون الدين عامل أساسي في العلاج .

وهناك من يرى إخفاق التجربة التاريخية للأديان في تحقيق الأمن الروحي وتهديده، حينما بالغت في تخويف الإنسان من رحلة الموت، وظلمات القبر ومحن الحشر، وأصبح الأمن الروحي مهمة الفلسفة في عالم ما قبل الأديان وهو العالم الذي تتضاءل فيه قدرة الأديان على رعاية روح الإنسان المعاصر وتدبير كينونته (**ناشيد، سعيد، 2019، صفحة 83**)

فلا يمكن إنكار مهمة الفلسفة في تحقيق ذلك الأمن، فهذا أفلاطون الذي جعل الحكمة تتحقق من خلال الشعور الداخلي بالسعادة، وأبيقور ومذهب اللذة والشعور بالفرح، أو عن طريق الطاقة الروحية مع برغسون، حيث ركزت

الفلسفة على ضرورة تحقيق المصالحة مع الذات عن طريق الحكمة، والإخلاص للنوع البشري عن طريق الفضيلة، أي « أن كل جهد يقوم به الفرد لأجل نموه الذاتي سيكون بمثابة المساهمة الشخصية التي يقدمها من أجل نمو النوع البشري » (**ناشيد، سعيد، 2019، صفحة 87**) .

التصوف هو الآخر يسعى إلى تحقيق الأمن الروحي، بل هو في حد ذاته منبع للطمأنينة والسلام والأمن ، لأنه روح الإسلام فهو « يسوغ وجدان الإنسان والمجتمع على نحو يكون فيه متصلا بربه، محققا لمبادئ الإسلام رحيما بين النّاس، موقنا بعقيدته، فهو أكبر قوة في مناهضة التفكير الذي يصدر عن بعض ضعاف القلوب والإيمان.

إنه يدعو إلى تثبيت الإيمان والعقيدة، لأن لدى الصوفية يقينا إيمانيا عن طريق المشاهدة، والمعرفة الحقيقية الراسخة التي لا تزعزعها أعاصير الحياة، ولا أمواج الفتن التي تموج بها الحياة، بل إن التصوف يناهض الفتن الهوجاء وما ظهر منها وما بطن ويدعو إلى الأمن النفسي والاستقرار الروحي » (**محمد، حسن عبد الباسط أحمد، 2018، صفحة 127**) فهو يجعل الإنسان يتسلح بالقيم الروحية في مواجهته للحياة، وليس هروبا من واقع حتميّ .

إن التصوف في جوهره تجربة روحية ، وهو يختلف عن العلم والفلسفة كما أقر بذلك الغزالي، لأنه « تتجه فيه الإرادة الإنسانية نحو موضوعها الذي تعشقه وتفنى فيه، فتعرفه النفس عن طريق الاتحاد به معرفة ذوقية، فالصوفي يعرف المطلق اللامتناهي بقدر ما يتجلى له ذلك المطلق في قلبه، ومعرفته له وشهوده إياه واتحاده به شيء واحد » (**عفيفي أبو العلاء، 2020، صفحة 15**).

يتحقق الأمن الروحي في التصوف من خلال تلك الممارسات الروحية التي تزيد في تقوية العلاقة بين العبد وربه، فالصوفي في هذا الطريق يجاهد نفسه جهادا كبيرا ليرتقي في الدرجات وليفوز بمحبة الله، فالله إذا أحب عبدا وجبت رحمته وقذف في قلبه نورا به يستشعر العبد لذة الإيمان والأمن والسلام، فالمقامات والأحوال التي تعتبر سفرا روحيا في رحلة المتصوف كفيلة بأن تضمن له ذلك السلام الروحي.

فلو أخذنا مقام التوبة وهو أول مقام من مقامات المنقطعين إلى الله، وقد جعلها أبو الحسن النوري حينما سئل عنها أنها : « أن تتوب من كل شيء سوى الله تعالى ، فذنوب المقربين حسنات الأبرار» (**الطوسي، أبي نصر السراج، 1960، صفحة 68**) ، فالتوبة من كل المعاصي وكل فعل قبيح، يجعل الإنسان يتخلص من قيود تخنقه، فالتحرر من شهوات النفس وملذاتها يحقق حرية العبودة لله .

وحال الطمأنينة وهو حال رفيع، وهي للعبد رجح عقله، وقوى إيمانه ورسخ علمه وصفا ذكره، وثبتت حقيقته (**الطوسي، أبي نصر السراج، 1960، صفحة 98**)، وتكون الطمأنينة بالذكر الذي جعله المتصوفة أهم باب في الطريق، لأن به يصل المتصوف إلى مرتبة الوَلاية والقطبية، وفائدته كما قال ابن عربي هو :« أن ترتفع بذكر الاسم من

حيث دلالاته على العين لا في حقك ولا في حقه، وليس الذكر هنا هو أن نذكر اسمه بل لنذكر اسمه من حيث ما هو مدح له وحمد» (**ابن عربي، محيي الدين، 2006، صفحة 344**)

وذكر القلب هو أن « هو أن يفكر الذاكر في مذكوره فلا ينساه، وذكر أوصاف المذكور هو أن يتفكر فيها حتى تستغرقه، والفناء عن الذكر هو أن يشهد المذكور، وهو غاية التفكر كما أن التفكر غاية الذكر »

فالاستغراق في جلال الله وهيبته عن طريق الذكر يولد في النفس استقرار روحيا لقوله تعالى : ﴿ **الذِينَ آَمَنوُا وتَطْمَئِنُ قُلوُبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُ القُلوُبُ** ﴾(**الرعد:28**)، فالذكر حياة القلب وسبيل لانشراح الصدر وسكينة للنفس، وبه ويستطيع العبد أن يدفع كل الآفات التي تقصده، ففي حضرته ينسى كل هموم الدنيا ومشاكلها ويزداد يقينا أنه كلما ضاقت عليه الأمور ستفرج من عند الله ، حيث لا يجد السعادة إلا بالقرب من الله ومحبته وطاعته وبه تقوى عزيمته على مواجهة صعاب الحياة .

وإن كان الأمن هو ضد الخوف كما قلنا سابقا، فإن الخوف عند الصوفية يأخذ طابعا روحيا، ويتعلق بالخوف من الله تعالى الذي يوجب الخشية والهيبة وهو شرط من الإيمان لقوله تعالى : ﴿**وَخاَفُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ (**آل عمران: 175**)، فالخائف يهرب من ربه إلى ربه، وهو زينة العبادة .

وقال أبو القاسم الحكيم: « الخوف على ضربين رهبة وخشية، فصاحب الرهبة يلتجئ إلى الهرب إذا خاف وصاحب الخشية يلتجئ إلى الرب..ورهب وهرب يصح أن يقال واحد مثل جذب وجبذ، فإذا هرب أنجذب في مقتضى هواه كالرهبان الذين اتبعوا أهواءهم، فإذا كبحهم لجام العلم وقاموا بحق الشرع فهو الخشية» (**القشيري أبو قاسم عبد الكريم؛، 2015، صفحة 240**)

فالخوف عند سادة المتصوفة يختلف عن معناه الآخر والذي يولد زعزعة في النفس وعدم استقرار روحي، بل إنما هو حالة روحية تستدعي ضرورة الخشية من الله، والقرب منه إذا لاشئ يستحق الخوف في هذه الحياة الدنيا إلا الله فمنه وإليه كل شيئ، لأن الخوف يولد المحبة فهذه رابعة العدوية الزاهدة المتعبدة المعروفة بالمحبة الإلهية كانت تناجي ربها قائلة: « إلهي ما عبدتك خوفا من نارك ولا طمعا في جنتك، بل حبا لك » (**فواز، زينب، 2014، صفحة 341**)

وأنشدت قائلة:

أحبك حبين حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاك
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواك
وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي الحجب حتى أراك
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاك

فما عرف عن رابعة العدوية أنها كانت كثيرة البكاء والحزن، وشوقها الدائم لله ومعاناتها لم تجعلها تفقد لذلك الأمن الروحي، لأنها كانت تأنس بمناجاتها وذكرها الدائم لله، والأنس هو: « هو انبساط المحب إلى المحبوب، وهو أن يستأنس بالأذكار فيغيب به عن رؤية الأغيار » (**الكلاباذي أبو بكر، 2011، صفحة 76**) فالأنس لذة روحية يستشعرها الذاكرون.

وهما بلغ الإنسان المعاصر ذروته في التقدم العلمي، فإنه لم يحقق السعادة، لذلك فهو بحاجة دائمة إلى الأمن الروحي والتصوف بحكم جوهره فهو الجانب الروحي للإسلام ، والإنسان على رغم اختلاف عرقه وعقيدته يسعى إلى توفير هذه الطاقة الروحية لتستقيم حياته ويعيش بسلام، خصوصا والعالم اليوم يشهد كثير من الأزمات التي تسبب للفرد القلق والخوف والشذوذ، كالحروب والآفات الاجتماعية والعولمة وما تحمله من مخاطر، والتطرف الفكري الذي هو الآخر يشتت أمن الفرد والمجتمع معا، ويخل بالتوازن بين مطالب الجسد والروح.

فالصوفية لعبت دورا كبير في بث الأمل من خلال إنشائها الزوايا التي تعد مؤسسة دينية تربوية، حيث تعددت أدوراها في كل الجوانب دينيا واجتماعيا وعلميا وسياسيا، وقامت البدع وأصرت على إحياء السنة النبوية ومعالم الإسلام الأولى فجمعت بين الحقيقة والشريعة، واعتبر منهجها علاجا لكثير من الأمراض النفسية.

إن الأمن الروحي مطلب شعبوي وهو حق من حقوق الإنسان، والتجربة الصوفية تفتح للقلب آفاق التزكية وتقويم السلوك، فيستقيم الإنسان بفضل تلك الأخلاق الطيبة فيصلح نفسه ويصلح غيره، ويصبح آمنا ومؤتمنا في وطنه فاعلا ومفتعلا في المجتمع، فالتصوف كفيل لتحقيق التوازن النفسي والتكامل العقلي ويتوافق مع متطلبات الأمن الحضاري.

4. التصوف والكورونا:

يشهد العالم اليوم جائحة كورونا، هذا الوباء الخطير الذي هدد الإنسانية جمعاء لسرعة انتشاره، ويعمل الباحثون في علم الفيروسات والبيولوجيا والأطباء على إيجاد لقاح له منذ بدايته إلى يومنا هذا، أما في مجال العلوم الأخرى السياسية والاجتماعية والفلسفية فكل واحد له رؤيته التحليلية النقدية، فكما أن الطبيب ينطلق من التشخيص للمرض والأعراض الذي تصاحب له، فكذلك عالم الاجتماع أو الفيلسوف يتعامل مع الوباء كظاهرة أو كإشكالية فلسفية تستدعي التأمل والنظر .

والتصوف هو الآخر نظر للوباء من وجهته الذوقية، فبعدما حرمت كل الأديان السماوية من ممارسة طقوسها، أصبح الإنسان بحاجة ماسة لهذا الجانب الروحي لتقوية إيمانه، ففي العالم الإسلامي أغلقت المساجد والزوايا، وكل التجمعات الدينية التي كانت تقرب العلاقة بين العبد وربه، وهو فضاء يتيح للفرد والمجتمع ذلك التكامل الحضاري.

الزوايا التي تعد كمؤسسة دينية تربوية كانت تلعب دورا كبير وفعالا في المجتمع من خلال منهجها الروحي، حيث تقام الحضرة التي هي عبارة عن « حلقة الذكر التي يجتمع فيها الشيخ مع مريديه، فقد تكون للتوجيه، وقد تكون لأداء حركات حسب طقوس الطريقة الصوفية » (**الحاج، محمد أحمد، العموش، بسام، 2012، صفحة 70**)

وأصحاب الحقيقة يعرفون الحضرة القلبية التي تصدر منهم شوقا ومحبة لله ولرسوله، ففي تلك اللحظة تعمر القلوب بالمعاني السامية والأنوار القدسية، فترتفع النفس من مقام إلى مقام أعلى حيث عالم المكلوت.

تعتمد الحضرة على السماع وهو سماع روحي جماعي يستمع فيه الحاضرون على الذكر أو الشعر الصوفي، « فالجميع يرى ويسمع ولكل منهم أسلوبه وحاله في الرؤية والسماع، فالحيوان يسمع والإنسان يسمع والثقافة تسمع والتاريخ يسمع والكون يسمع، لكن السماع الصوفي هو سماع الكل الذي يحتوي في ذاته على المستويات جميعها(الطبيعي والإنساني والثقافي والتاريخي والكوني والمطلق) فهو في حد ذاته أسلوب متكون في صيرورة الروح المبدع واستظهاره في القول والفعل وبوصفه تعبيرا عن لسان الحال وإلهاما حقا » (**الجنابي، ميثم، 2011، صفحة 347**).

« إنّ السماع الصوفي هو ركن هامّ وأساسي في الممارسات الصوفية، بل هو قطب الرحى الذي تدور حوله جميع الطرق الصوفية مشرقا ومغربا على الإطلاق، باعتباره محطة لا غنى عنها للعروج والترقي في السلم الروحي، للوصول والفناء في الحضرة الإلهية، حيث ما ثم سوى الله » (**قيداري قويدر، 2020، صفحة 64**).

ففي حالة السماع تكشف حقيقة الأنا وروحها المبدع، وتتحد النفس مع خالقها اتحادا روحيا يغيب فيه عن الخلق والعالم لتحضر أمام نور قدسه العظيم، والسماع للمتصوفة أنواع فمنها سماع الآيات القرآنية والمدح النبوي، ومنها ما يتعلق بالشعر الذي يتعلق بالمحبة الإلهية، وأحيانا يستعين المتصوفة بالرقص في تلك الحضرات حيث يعد جلال الدين الرومي صاحب الطريقة المولوية أول من ابتكر الرقص الصوفي ليجعله طريقة للوصول إلى الكمال.

يصف جلال الدين الرومي السماع في قصائده الغزلية كيف يسمو الإنسان بدوران السماع، ويقول أنّ السماع غذاء العاشقين، ووسيلة للقرب من الله، حيث يقول (**الحسني وائل، 2017، صفحة 46**):

أتعرف ما السماع؟

هو سماع كلمة بلى، هو نسيان النفس والوصول إلى الله .

أتعرف ما السماع؟

هو رؤية حال الحبيب وإدراكه .

وهو سماع الأسرار الإلهية من خلف الأستار اللاهوتية .

أتعرف ما السماع؟

هو الغياب عن الوجود، وتذوق الخلود في الفناء.

أتعرف ما السماع؟

هو محاربة النفس، والرقص على الأرض كدجاجة نصف مذبوحة.

مضمخة بدمها.

أتعرف ما السماع؟

هو دواء النبي يعقوب وشم ريح يوسف من قميصه.

أتعرف ما السماع؟

هو عصا موسى التي تلقف سحر فرعون في كل حين.

أتعرف ما السماع؟

هو الوصول إلى السر الإلهي مع الله.

الذي لم تستطع الملائكة الوصول إليه.

أتعرف ما السماع؟

هو فتح الفؤاد كالشمس التبريزي ومشاهدة الأنوار القدسية.

هذه المعالم التي حددها جلال الدين الرومي هي بمثابة مفاتيح توصل إلى السرّ الذي يطمح له كل سالك في الطريق الصوفي، ألا وهو القرب من الله ومحبته، وإن كان في نهاية حديثه قد حصرها في فتح الفؤاد كالشمس التبريزي، هذا الشيخ الروحي الذي يعد نقطة تحول جلال الدين الرومي من الرجل الفقيه إلى الرجل المتصوف المتشوق إلى الحقيقة فكيف إذن يمكن الأنس بالسماع في ظل انغلاق الطرقية أو الزوايا مع هذه الجائحة؟

إنّ إيمان المريد بالموسيقى والشعر والرقص كوسيلة للوصول إلى الله، يساعده على التركيز بدرجة كبيرة فلمّا يعود إلى الواقع يكون بحال أفضل ومختلف عن الذي كان عليه، والرومي أولى به أهمية كبيرة سواء في كتابه " الديوان الكبير" أو " المثنوي" فقد اعتبره غذاء العاشقين، ففيه تسكن روح الإنسان في حضرة الحبيب، وينعم بأمن روحي لا مثيل له، ولربما في ذلك سر من الأسرار مستتر في إيقاعات الموسيقى كما ذكر ذلك جلال الدين الرومي.

حينما ينفصل الصوفي عن هذا الجو في ظل جائحة كورونا سيكون أمنه مهدد لأنهم اعتادوا على الجماعة، فقد لا يمارس تجربته الروحية منفردا على أحسن وجه، ويزداد شوقه لإخوان ، فمحبة الله توجب محبة الخلق، في حين قد يجد بعضهم تلك الطمأنينة في العزلة والخلوة، فعلى رغم ما يعيشه العالم اليوم لم يشكل بالنسبة إليهم عائقا في ممارسة أذواقهم الروحية، وكان الحجر الصحي وسيلة للتقرب إلى الله أكثر .

لم يكن جلال الدين الرومي ابن زمانه فقط، بل يحضر اليوم مع هذه المعاناة التي حلت بالعالم، وبالخصوص في أمريكا حينما استحضره المفكر الإيراني أميد صافي أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة ديوك الأمريكية، والمختص بالتراث الإسلامي وبالأخص تراث جلال الدين الرومي، حيث تخيل حياته في أمريكا مع هذا الوباء وكيفية ظهوره في الأماكن العامة وهو يرتدي كمامة، متسائلا: هل كان يجلس ويصلي أم ينزل إلى الشارع ؟، مجيبا «الاثنين معا فحياة الجسد وحياة الروح لا يمكن فصلها عن بعضها البعض، لأن الله هو من يلتمس للحفاظ على أجسامنا وقلوبنا وأرواحنا، وما يميز مسار الحب الجذري بعيدا عن العديد من التقاليد الأخرى هو فكرة أنه إذا دعيت أنك تحب الله، فعليك أن تحب خلق الله ولا يمكنك أن تدعي أنك لا تبالي بمعاناة الإنسانية، بل والكائنات الحية الأخرى إذا ادعيت أنك على هذا الطريق » (**الصحافة الأمريكية،، 2020**) فرسالة الرومي وكل المتصوفة رسالة إنسانية وهي إدراك المعاناة وضرورة المؤانسة والوقوف مع الضعفاء والمتألمون.

وبتركيا تبدأ مراسيم السماع بالمدائح النبوية، وصوت « القدوم يرمز إلى الأمر الإلهي "كن"، أمّا صوت الناي فيرمز إلى الروح التي نفخها الله تعالى في الإنسان، ثمّ يقوم الدراويش بالدوران حول المكان خلف شيخهم ثلاث مرات متهيئين للرحلة الروحية والمعنوية، تبدأ رقصة السماع–أو الرحلة الروحية–بخلع اللباس الخارجي كرمز للتخلي عن النفس وأهوائها ثمّ بالوقوف أمام الشيخ ناكسي الرأس طالبين الأذن، ورقصة السماع عبارة عن أربع تحيات ترمز باختصار إلى " ترك العبد لأهواء نفسه، والبدء بسلوك الطريق إلى الله، ثمّ الفناء فيه، ثمّ العودة إلى العبودية كإنسان كامل » (**أوقويوجو جيهان، 2014، صفحة 65**)

لم يكن التصوف إذن مغيبا في ظل هذه الجائحة، بل رأى أن الأمر يستحق التأمل والنظر ، واعتبره رسالة سماوية موجهة للعباد لابد للجميع أن يأخذ العبر من هذه التجربة، فهي فرصة لإعادة الحسابات وإلى تقوية العلاقات الاجتماعية من خلال التضامن والتكافل، وإلى تعزيز قيم التسامح والمحبة والتعايش مع الآخر، فكل إنسان مهما كانت عقيدته وفكره وجنسه يعيش هذه الحالة، وكأن الإنسانية جمعاء واحدة صحيا، حيث يجب العمل على الاتحاد والتعاون لأجل الخروج من هذه الجائحة بأقل ضرر ممكن، فهذه المعالم الروحية ليست غريبة في التصوف الإسلامي بل يعاد إحياؤها في ظل الظروف التي يشهدها العالم اليوم، ففهم الرسالة هو اليقظة بحد ذاتها.

وهذه الفكرة طرحت في المتن الأكبري، فمحيي الدين ابن عربي العارف الرباني الذي عرف مذهبه بوحدة الأديان والمحبة دعا إلى ضرورة الوقوف مع أي شيء في الوجود، فالخلق هم ظل للوجود الحق ، والعارف هو الذي يرى الحق في كل شيء بل يراه عين كل شيء، فما من شيء عند ابن عربي إلا وله علاقة بمذهبه في وحدة الوجود، فكل المظاهر المادية تعلن عن وجود الله دون أن يكون لها وجود قائم بذاته، وهذا الوباء جعل العقل البشري يدرك وجود الله وقوته وعظمته لأن به تحرك الفيروس الذي لا يرى بالعين المجردة ، والذي أعجز العلماء والأطباء فقد لتبقى قوة الخالق فوق أي قوة أخرى.

وهناك من رأى في الحجر الصحي خلوة مع الله، والخلوة في معناها كالذي قال لصاحبها: « اذكرني عند ربك في خلوتك، فقال له: إذا ذكرتك فلست معه في خلوة..فمنهم من يطلب الخلوة لمزيد علم بالله من الله لا من نظره وفكره، وهذا أتم المقاصد فإنه مأمور بذلك، والعمل على الأمر الإلهي هو غاية كمال العمل» (**ابن عربي، محيي الدين، 2006، صفحة 227**).

فالخلوة تعد من الطقوس السائدة في الطريقة الصوفية، حيث يدخل الصوفي في عزلة عن الناس ليختلي بربه، فيكثر من الأذكار والصيام والصلاة، وقد دخل كثير من مشايخ الصوفية في ذلك في ظل جائحة كورنا أمثال علي الجعفري رئيس مؤسسة طابة للمؤسسات، والشيخ جابر الجازولي شيخ الطريقة الجزولية و الشيخ علاء الدين أبو العزائم شيخ الطريقة العزمية من أجل التضرع إلى الله ليرفع هذا الوباء عن العالم أجمع.

والخلوة على صورتين: « خلوة مادية في الظاهر وتعني أن ينعزل السالك عن الناس منصرفا إلى عباداته ورياضاته الروحية متأملا في عالم الملكوت، لأن انحباس الحواس الظاهرة يترك المجال للحواس الباطنة لمطالعة آيات الله، وخلوة قلبية في الباطن ومعناها، أن يكون جسد السالك مع الخلق وقلبه مع الحق، بأن يكون قلب السالك حاضرا مع الحق غائبا عن الناس مع كونه يعيش بينه » (**حيدري، جواد فقي على الجرم، 2016، صفحة 224**).

وقد قال الغزالي : « وآثرت العزلة حرصا على الخلوة وتصفية القلب للذكر، وكانت حوادث الزمان، ومهمات العيال وضرورات المعيشة، تغبر فيّ وجه المراد وتشوش صفوة الخلق، وكان لا يصفو لي الحال إلا في أوقات متفرغة، لكني مع ذلك لا أقطع طمعي منها، فتدفعني عنها العوائق، وأعود إليها، ودمت على ذلك مقدار عشر سنين، وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به، أني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق» (**الغزالي، أبو حامد، 2011، الصفحات 256–257**).

فمدة عشر سنوات التي قضاها الغزالي في هذه الخلوة الروحية، جعلته يدرك أنه لا سبيل للأمن الروحي إلا من خلال توطيد العلاقة بالخالق، لأنه كلما ابتعد العبد عن ربه كلما افتقد لذلك السلام وتذبذت حياته، والحجر الصحي فرصة لهؤلاء لتقوية رصيدهم الإيماني، بل إنهم يستعينون بأذكار معيّنة وبالقرآن الكريم تحصينا يقيهم ويحفظهم من الإصابة بهذا الفيروس، منطلقين من حديث النبيّ **محمد صلى الله عليه وسلم (مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إِلاَّ أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً)** أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والكثير من المتصوفة يؤمنون بمعجزة القرآن في الشفاء لقوله تعالى: ﴿**وَ نُنَزِلُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءُ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾(**الإسراء: 82**) ويعتبرونه علاجا لكل الأمراض نفسية كانت أو جسدية، ولا يستبعد الأمر مع كوفيد 19 ففي التجربة الأندونيسية « كان بعض المرضى الذين تأكدت إصابتهم بفيروس كورونا (covid 19)قد شفوا منه تماما بفضل سماعهم إلى القرآن الذي تلي عليهم تكرارا، فأخذ هذا النوع من العلاج منذ ذلك الحين يشتهر بما يسمى (Quranic Immunity)والعلاج ببساطة يهدف إلى تقوية مناعة المرضى بفضل تلاوتهم القرآن وسماعهم إياه ضد عدوان الفيروس الذي أراد أن يدمر الخلايا » (**البوغيسي الأزهري، محمد ويدوس سيبو، 2020، صفحة 57**)

قد يبدو للبعض ضرب من الميتافيزيقا حيث يلجأ الغرب إلى إيجاد لقاح له منذ بداية ظهوره إلى يومنا هذا، في حين نجد المسلمون يربطون العلم بالدين ويؤمنون بالإعجاز العلمي للقرآن الكريم، فما من داء إلا وله دواء، وقد يكون موجودا إذا أحسن المسلمون النظر والتعمق فيه، وللأمر صحة من المنطق في رفع المعنويات وإبعاد المريض عن القلق والخوف والفزع، إذ كلما كان هناك أمن روحي من شأنه أن يقوي جهاز المناعة في التصدي لهذا الفيروس، والإنسان المسلم يسلم أمره بيد رب العباد وهو على يقين أنه لن يصيبه مكروه إلا إذا كتب الله له ذلك، والمتصوفة يذهبون أبعد من ذلك بحكم تجربتهم الذوقية، ولهم أسرار يصعب تفكيكها لما نحويه من ألغاز ورموز ، ولربما يكون فيروس كورونا لغز وجودي لا يعرفه إلا خاصة الخاصة.

5. الخاتمة:

يلعب التصوف دورا مهما في المجتمع من حيث كونه طريقة أو منهجا تربويا بالدرجة الأولى، وكل إنسان في هذه الحياة يمر بتلك النسمات الروحية دون أن يعتنق طريقة في التصوف، فالإنسان بحكم طبيعته الفطرية يحنّ إلى ذلك العالم الذي جاء منه، لكن الظروف ومشاكل الحياة تحيل إلى ذلك، وما إن يصطدم بموجة ثقيلة تعيق فكره وتعبث بعالمه الداخلي، تراه يبحث عن مكان أو وسيلة تساعده على استرجاع ذاته.

كان التصوف ومازال العالم الروحاني الذي تستأنس فيه النفس، وترقى بروحها إلى عالم الملكوت، ففيه تتحقق كل مطالب الإنسان روحيا واجتماعيا وفكريا فهو يمثل الصفاء الروحي ويناهض الفتن، ويحارب التطرف بكل أنواعه ويدعو إلى الأمن النفسي والاستقرار الروحي، فهو المنهج الأفضل الذي يمثل روح الإسلام ويسعى إلى فرض وجوده في كل نكبة حلت بالمسلمين، ويقدم كل ما لديه للخروج من الأزمة تماما في تعامله مع وباء كوفيد 19، ورسالته ليست إقليمية بل كونية لأنه يؤمن بالتعايش والتحاور مع الآخر.

ويمكن الخروج إلى جملة من النتائج الآتية:

1-يعدّ التصوف علاجا روحيا لكثير من الأمراض النفسية التي تصيب الإنسان.

2-أهمية التصوف تتجلى في قيمة ما يقدمه للفرد والمجتمع، وليس مجرد أقوال باطلة ألصقت به عبر التاريخ.

3-التصوف هو الأخلاق، والأخلاق أهمّ مكون روحي لكل مناحي الحياة، وهو كفيل لتحقيق الأمن الروحي.

4-لقد تجلى دور التصوف في ما مدى مساهمته في ترسيخ قيم التضامن بين النّاس في ظل جائحة كورونا، وهو ما قامت به أهمّ الزوايا عبر كل العالم الإسلامي.

5-الدعوة إلى ضرورة التجديد الروحي مع استمرارية هذا الوباء العالمي.

6. قائمة المصادر والمراجع:

-القرآن الكريم.

1-Christian, Bonaud .(1991) .،*le soufisme Maisonneuve et Larose .*

2-Kubro, Nazhmiddin ، .(2002) *.la pratique du soufisme : Quatorze petits traités, traduit par Paul Ballanfat .*،éditions de l'échât.

3-Michon, Jean-Louis ، .(1990) *.le soufi marocain Ahmad ibn Ajiba et son Mi'raj .*،Vrin.

4-الحسني وائل. (2017). شرح قواعد العشق الأربعون للرومي. دار الحكيم.

5-ابن عربي، محيي الدين. (2006). *الفتوحات المكية، مجلد3، ، ط3.* بيروت: دار الكتب العلمية.

6-ابن نظور، أبي الفضل جمال الدين. (1993). *لسان اللسان تهذيب لسان العرب جزء1، .* بيروت: دار الكتب العلمية،

7-أوقويوجو جيهان. (2014). مولانا جلال الدين الرومي. القاهرة: دار النيل.

8-البوغيسي الأزهري، محمد ويدوس سيبو. (2020). *عواصف الأوبئة القاتلة من الطاعون إلى فيروس كورونا covid19* . بيروت: دار الكتب العلمية.

9-الجنابي، ميثم. (2011). *حكمة الروح الصوفي، ط1، .* سوريا: دار المدى.

10-الجيلاني، عبد القادر. (2007). *فتوح الغيب، تحقيق: أبو سهل نجاح عوض صام، ط1، .* القاهرة.: دار المقطم.

11-الحاج، محمد أحمد، العموش، بسام. (2012). *، قاموس العقيدة، .* دار الأكاديميون.

12-السلمي، عبد الرحمن. (1969). *، طبقات الصوفية ، ط2.* مصر: دار التأليف.

13-الصحافة الأمريكية،. (18 جويلية، 2020). *العديد من الشموس بعد الظلام " استدعاء جلال الدين الرومي في المعاناة الأمريكية مع جائحة كورونا*. تم الاسترداد من .www.aljazeera.net.

14-الطوسي، أبي نصر السراج. (1960). *اللمع، تحقيق: عبد الحليم محمود.* مصر: دار الكتب الحديثة.

15-الغزالي، أبو حامد. (2011). *المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال، تحقيق: محمد محمد أبو ليلة، نور الشيف عبد الرحيم رفعت.* الولايات المتحدة الأمريكية: جمعية البحث في القيم والفلسفة.

16-القشيري أبو قاسم عبد الكريم؛. (2015). *الرسالة القشيرية، تحقيق: عبد الحليم محمود، ط2.* القاهرة.: لمكتبة التوفيقية.

17-الكلاباذي أبو بكر. (2011). *التعرف لمذهب أهل التصوف ط1.* بيروت: دار صادر..

18-حيدري، جواد فقي على الجرم. (2016). *،مولانا خالد النقشبندي ومنهجه في التصوف.* بيروت: دار الكتب العلمية

19-عفيفي أبو العلاء. (2020). *التصوف الثورة الروحية في الإسلام.* وكالة الصحافة العربية.

20-فواز، زينب. (2014). *الدر المنثور في طبقات ربات الخدور.*

21-قيداري قويدر. (2020). دينامية النص الصوفي. بيروت: دار الكتب العلمية.

22-الهجويري. (1980). *كشف المحجوب، ترجمة: اسهاد عبد الهادي قنديل*. بيروت: دار النهضة.

23-محمد، حسن عبد الباسط أحمد. (2018). *الإمام يوسف بن إسماعيل بن يوسف النبهاني وجهوده في الدعوة إلى الله*. بيروت: دار الكتب العلمية.

24-ناشيد، سعيد. (2019). *الطمأنينة الفلسفية، ط1*. القاهرة: دار التنوير.